تفكير القمة وتفكير ملوك الطوائف

هل بإمكان أحد منا نحن الفلسطينيين والعرب جميعا أن ينكر أنه على الرغم من أحوال العتب والغضب بل والشتم التي وقعت بين شريحة أو أكثر، من شعب عربي أو أكثر، ضد حاكم أو محكوم أو أكثر، أو ضد شريحة من الناس في بلد عربي أو أكثر، فقد كان مرد بعضنا إلى بعض دائما، وكان كل منا يشعر بالحاجة إلى نجدة الآخر، كلما اعتدى عليه عدو خارجي أو أصابته مصيبة من مصائب الزمان..؟

نحن الفلسطينيين مثلا.. كم مرة أوسعنا هذا المسؤول في مطار عربي أو آخر سبابا، بسبب المعاملة الفظة التي تلقيناها بناء على تعليمات عليا؟ وكم مرة قلنا إن هذا الحاكم أو ذاك مجرد أدوات بيد الأمريكيين؟ وكم مرة قيل عنا إننا بعنا أراضينا لليهود أو أننا لئام لا نحفظ الجميل وأننا نستأهل ما يحدث لنا؟

والدول العربية.. كم مرة انخرطت في حملات إعلامية بعضها ضد بعض، والشعوب العربية.. كم مرة تقاذفت المعايب والاتهامات والتشنيعات؟

إلا أن ذلك كان أشبه بسحابات الصيف العابرة. فكلما شدد الإسرائيليون عدوانهم علينا وكلما تنكروا لاتفاقاتهم معنا هرعنا إلى الرسميين العرب، وطلبنا عقد مؤتمر قمة، وعقد مجلس الجامعة العربية، ناسين أننا كنا نرمي الجامعة العربية بالعقم ونقول إن الحكام العرب حالة ميؤوس منها! وكلما اشتد النكير على إخوتنا في العراق عادوا يستخدمون لهجة مصالحة نحو الدول التي وصفوها منذ وقت قريب بكذا وكيت وألف كذا وكيت! وقد سارت في العواصم العربية مسيرات تعبر عن تعاطف الملايين مع الفلسطينيين تارة ومع العراقيين أو الليبيين تارات أخرى. وربما كان بعض من ساروا فيها قد تكلموا من قبل كلما بعيدا عن هذه العواطف وهذا الإحساس بالتعاطف والمشاركة ووحدة المصير. إن الأمة واحدة تشد بعضها إلى بعض وشائج غاية في القوة والثبات، لا يستطيع أي حاكم أن يتجاهلها.

<u>الأمريكيون وتدويخ الفلسطينيين</u>

ومن هنا فإننا نفضل أن نبقى على أمل بأن مؤتمر القمة الحالي سوف يفعل شيئا حيال المحنة الكبرى التي يمر بها الفلسطينيون سدنة المسجد الأقصى، ويمر بها العراق وتمر بها المجموعة العربية كلها. وأن المؤتمر سوف يقدر مصيرية المرحلة التي تمر بها المنطقة بعدما جاء الجمهور الإسرائيلي إلى الحكم بالرجل المصمم على المضي قدما في الضغط وفي الاستيطان وفي إيصال الوضع على الأرض إلى حشر الفلسطينيين داخل مناطق اكتظاظهم السكاني، وتقليص ما بأيديهم من أراضيهم، مع وضعهم في الأحوال القصوى من التوتر النفسي والضائقة الاقتصادية التي تؤدي إلى ترحيل أكبر عدد ممكن منهم.

وازدادت المرحلة خطورة بتكشف الموقف الأمريكي عن نوع من التطابق الجديد فيما بين الأمريكيين والإسرائيليين. وإذا كان الأمريكيون لم يتحدثوا بعد عن وجهات نظرهم في تفاصيل سياساتهم في المنطقة ومشكلاتها ما عدا استهداف العراق والإعلان عن النوايا الهجومية ضده، فإن الخط (الإجرائي) لنهج إدارة بوش في التعاطي مع السياسات الخارجية، وهو الخط الذي عبر عنه بوش أصلا منذ أيام حملته الانتخابية حين قال إن السياسة الأمريكية الخارجية في عهده ستكون متواضعة ولن تقدم (وصفات لمعالجة أوجاع الأمم) على حد تعبيره، يناسب رغبة

شارون في إطلاق يده في فلسطين وتدويخ الفلسطينيين في عملية سياسية قائمة على المغالطات الظرفية بينما تقوم الجرافات بالعمل الحقيقي.

وأكثر من هذا : شرعت الإدارة الأمريكية أثناء زيارة شارون لواشنطن في الخروج على خطها الإجرائي نفسه. فتحدث كولن باول عن اقتناع أمريكا بأن على الفلسطينيين أن يوقفوا العنف قبل استئناف المفاوضات. وتحدث مجددا عن نقل السفارة الأمريكية إلى القدس واعتبارها عاصمة إسرائيل، وفي حين صرح الرئيس بوش بأنه (يأمل) في أن تخفف إسرائيل الضغط الاقتصادي عن الفلسطينيين، قامت إسرائيل بإبلاغ الولايات المتحدة رفضها تسليم مبالغ مستحقة للسلطة الفلسطينية، وفي حين (نصح) كولن باول شارون أن لا يقوم بأعمال استيطان جديدة في الضفة والقطاع باشرت حكومة شارون في بناء وحدات سكنية جديدة في جبل أبو غنيم. أي أن واشنطن وافقت ضمنا على أن تصريحاتها للاستهلاك في العالم العربي لا تعني غل يد شارون عن ممارسة الأذى والضغط والإكراه ضد الفلسطينيين.

مضمون محادثات شارون

لقد استقبلت واشنطن شارون كأنه ليس شارون الذي تعرف تاريخه وموقفه من حقوق الإنسان ومن جرائم الحرب. ووجد الرجل نفسه هناك يتمتع بحظوة الأهل إلى الحد الذي سمح له أن يشير على الولايات المتحدة بما عليها أن تفعل وما لا تفعل. فاقترح على الولايات المتحدة وقف المساعدة العسكرية لمصر. وهذا قليل من كثير مما تفتقت عنه طلباته. ولا شك أنه شرح شرحا موسعا للرئيس بوش نظرياته الاستراتيجية حول ضرورة القضاء أولا بأول على أية قوة يكتسبها العراق أو إيران، وحول ضرورة الحيلولة بأي ثمن دون تشكل محور سوري عراقي إيراني. ولا شك أن الباكستان ومفاعلها النووي نالت بدورها قسطا من تحريضه ونفثات حقده. ولا شك أيضا أنه طلب من بوش أن يكون على استعداد لفتح اعتماد مالي كي تول الويات المتحدة مشروع شارون الرامي إلى استقدام مليون مستجلب يهودي جديد إلى فلسطين خلال عشر سنوات قادمة.

وفي مناخ زيارة شارون لأمريكا أعاد جيش الاحتلال إغلاق معبر رفح وجدد قصفه للمنازل السكنية في غزة وخانيونس، وشد حصاره وإجراءات الإغلاق ضد حلحول والخليل وبيت لحم بصورة خاصة. وهكذا فسرت الإدارة الأمريكية الجديدة سياستها من حيث الجوهر بما لا يخرج عن سياسة أية إدارة سابقة، وهي الانحياز المطلق لإسرائيل والانسياق وراءها في النظر إلى المنطقة كلها نظرة العداء والتصادم الحتمي وهكذا تنجر الولايات المتحدة دون داع يخصها مع سياسات وأفعال القتل والإرهاب الحقيقي الذي تقوم به إسرائيل مدفوعة بخوفها من مجرد الاحتمال أن تملك دولة عربية أو إسلامية صنفا من صنوف القوة أيا كان.

فالحلف الأمريكي الإسرائيلي ثابت لا يتغير. والولايات المتحدة تمارس العداء للعرب ممزوجا بقدر من الاستهانة والاحتقار والبغض لحضارتهم وتاريخهم ودينهم وعلى نحو يتزايد عاما بعد عام بفعل التشويه المنهجي المقتدر الذي تشنه المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة ضد العرب والمسلمين، في أوساط الحكم كما في الأوساط الشعبية.

استراتيجية جديدة للعرب

والسبيل الوحيد لبناء استراتيجية سياسية عربية جديدة هو الخروج ولو تدريجيا من دائرة العلاقات الوثيقة مع الولايات المتحدة، واستبدالها بعلاقات تعددية مع روسيا والصين أساسا،

ومع اليابان كلما تجرأت هذه على الاقتراب من العرب دون أن تحصل على إذن مسبق من الأمريكيين. إنني لا أتحدث عن قطع العلاقات مع الولايات المتحدة ولا عن تأميم النفط الوطني في البلاد العربية، ولكن أتحدث عن شيء شبيه بما فعلته إيران في تقاربها الأخير مع روسيا. فتيار التقارب الآسيوي وبناء العلاقات الاقتصادية والتحالفية مع روسيا والصين وكوريا الشمالية هو الجدير بالتشجيع وهو الذي يقدم نفسه بعد التجارب اليائسة مع الغرب حلا وحيدا لإدخال تجديد على مركز العرب في العالم بعدما هبط الى الحضيض وباتوا يسامون الخسف نظير ما قدموا من خير وباتت حرية ديارهم رهينة نهب نفطهم حتى آخر نقطة من آخر بئر. ولولا أن أوروبا ما زالت تدور في سياساتها الشرق أوسطية في الفلك الأمريكي الإسرائيلي لعدنا إلى التصور الذي تصورناه ذات حين وقلنا بأن أوروبا يمكن أن تلعب دورا في مساعدتنا على فك الإسار الذي فرضه الأمريكيون علينا لصالح إسرائيل. ولكن أوروبا لم تتمكن بعد من بلورة كيانها المستقل عن الولايات المتحدة، حتى وإن نجحت في تشكيل الاتحاد الأوروبي. فالتبعية الأوروبية لأمريكا تبدو في أمور خبيثة، مثالها دور الوكيل والخادم الذي تؤديه الأجهزة السرية الألمانية في السنوات الأخيرة لصالح السي آي إيه والموساد ضد الفلسطينيين والعرب والإسلام، ناهيك عن لعب العديد من المؤسسات الأوروبية الأخرى أدوارا أخرى في سبيل التآمر على حق العودة الخاص باللاجئين الفلسطينيين.

هذا مثال للأفكار الجديرة بالمناقشة من قبل الرؤساء والملوك العرب في مؤتمرهم بعمان. فالمشكلة في فلسطين ذات وجه اغتصابي اقتلاعي شرس. ولكنها نابعة من المصدر ذاته الذي يضع الدول العربية والإسلامية في مشكلة ذات وجه تسلطي انتهابي مبطن بالصداقة. أعني أن ما يلقاه الفلسطينيون يلقاه العرب والمسلمون بدرجات ومظاهر أخرى. والسبب هو الضعف العام وعدم توقف الولايات المتحدة عند حد في عدائها المستمر.

دروس الأندلس

نحتاج نحن الفلسطينيين والعرب والمسلمين إلى استذكار البرهة الزمنية التي سبقت سقوط الدولة العربية الإسلامية في الأندلس. لا حنينا للماضي الذي نقرأ عنه في الكتب، ولا رغبة في إعادة فتح الأندلس. ولكننا نريد أن نقلب تلك الصفحات لسبب واحد، وهو أن نتمعن كيف عجز ملوك الطوائف وعجزت عقلية ملوك الطوائف عن تشكيل قوة يمكنها أن تجابه العدو المتربص بها، وعجزت في المؤدى عن تدارك السقوط الذي بدأ ببعض الممالك ثم اجتاحها واحدة بعد الأخرى حتى أصبح أهل الأندلس لاجئين. إن في ذلك عبرة تاريخية معروضة علينا قبل الناس كلهم، ومن حق أي باحث عن العبرة أن يتأملها ويستخلص منها دروسا مستفادة.

و عبارة دول الطوائف في حد ذاتها تتضمن إيحاء سريعا موحيا لما كانت قد وصلت إليه الأمور قبل أن تجرف الموجة العاتية ما تبقى من ذلك الكيان الذي كان منارة العالم في وقت من الأوقات. لقد نجم عن انقسام الدولة العربية الإسلامية في الشطر الأخير من حياتها تآكل مستمر أدى في النهاية إلى الانهيار الكلي.

في تلك المراحل الأخيرة أدمنت الدويلات الانقسامية استمراء الذل الذي يسومها إياه الفرنجة، ودفع الغرامات لهم كل عام. وكان بعض ملوك الطوائف لا يخفون شماتتهم إذا أصاب منافسيهم ضر على أيدي الفرنجة الذين هم الخصم المشترك. وكان صغار أحلامهم وضعف نفوسهم ربما أوقعهم في وهم أن ما يحدث لغيرهم لن يحدث لهم. ثم أثبت التاريخ أن الفرنجة أضمروا منذ البداية الكراهية والحقد للكيان كله دون استثناء.

بمثل هذه العبرة وهذا الدرس المستفاد يمكن أن تقفز القمة العربية نحو الخلاص للمحكومين وللحكام. أما التفكير القائل إن على كل بلد أن يقلع شوكه بيده، أو التفكير القائل بأن ما يقدمه بلد عربي للفلسطينيين هو من قبيل المعروف والفضل والمنة، فذلك هو ضيق الأفق والوعي والحس السياسي.

من الآمر بالصرف

أرسل رئيس تحرير إحدى الصحف في دولة عربية شقيقة مراسلا مزودا بمسجل أشرطة يسأل بعض المسؤولين عندنا : ألم تقدم لكم دولتنا مبلغ كذا وكذا من الأموال منذ قمتم بثورتكم؟ فأجابه المسؤول : بلى. ونحن لكم شاكرون.. لكنني أود أن أذكرك أنكم قدمتم لنا هذا المبلغ في قتالنا من أجل عروبة فلسطين في غضون أربعين سنة في حين قدمتم في الأفغان أضعاف أضعاف أضعافه في غضون سنوات معدودات.

ولم يعد أحد يجهل أن الأمريكيين هم الآمرون الحقيقيون بالصرف والمنع (أليس المال مودعا في بنوكهم؟!). ولن نستحي أن نقول إن الأمريكيين وراء امتناع بنك التنمية الإسلامي عن ضخ المال الذي تبرعت به القمة السابقة للمناطق الفلسطينية في زمن البؤس والرمادة. لأن السياسة الإسرائيلية التي يسخر الأمريكيون علاقاتهم لضمان تنفيذها تريد أن تصلب الفلسطينيين على حائط الفقر والعناء والحصار فلا ينزلوا عنه إلا للتوقيع على التنازل عن فلسطين كلها والأقصى طليعتها وعنوانها ليكون شارون ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل وإلى خيبر، ويطبع مصاحف خالية من سورة الإسراء مثلما طبعوا من قبل مصاحف خالية من آيات الجهاد. أسبوعيات نائب